كتاب جديد

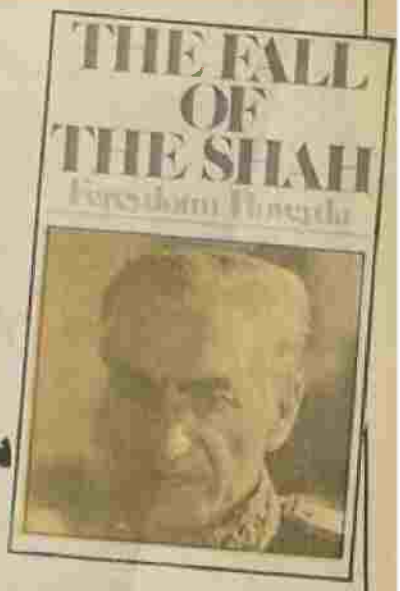

قصة سقوط الشاه

٣

روزاليوسف

« منذ بداية السبعينات تحول نظام الحكم الشاهانى من ملكية مستنيرة كان يمكن أن تتطور فتصبح ملكية دمقراطية إلى ملكية شديدة الوطأة فى استبدادها وانفصالها عن الواقع . وماكان من الممكن أن يحدث ذلك لولا تغير مواز فى شخصية الشاه نفسه بوصفه رأس النظام أو النظام كله » .

الرجل الذى ضل طريقه!

● المؤلف : فريدون هويدا ، لامع الشاه ولامع الخميني .

يرويها : فريدون هوفيدا

يقدمها : عبد العظيم حماد

الشاهبانو الشاه يقار من شعبها

عل أن ذلك التغير لا يسهل فهمه - وإن سهل رصد بداياته وأسبابه المباشرة - دون فهم تطور شخصية الإمبراطور فى مراحلها المتعددة ، ودون الاقتراب من الأفكار والأحلام التى ظل الرجل أسيرا لها طيلة وجوده فوق دست الحكم . ونقول إن رصد بداية وأسباب التغير الذى طرأ على شخصية الشاه منذ أوائل العقد الماضى أمر يسير لأن أغلب الاحتفالات الأسطورية فى عام ١٩٧١ بذكرى مرور ٢٥٠٠ سنة على تأسيس الإمبراطورية الفارسية على يد قورش العظيم ، وهى الاحتفالات التى توج الشاه فيها نفسه ملكا للملوك وإمبراطورا للفرس .

كذلك يبدو ذلك التغير وثيق الصلة بزيارة الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون لطهران يوم ٣٠ مايو ١٩٧٢ وهى الزيارة التى كرست الشاه حاميا للمصالح الغربية فى المنطقة بعد أن عهد إليه الأمريكيون بمهمة ملء الفراغ الناجم عن انسحاب القوات البريطانية من المنطقة . وبطبيعة الحال جاء ارتفاع أسعار البترول سنة ٧٠ بعد ذلك بعام واحد ليضيف كثيرا إلى جرعة الأوهام فى رأس الشاهنشاه .

ولقد كتب وقيل الكثير حول احتفالات قورش . وكان البذخ الذى لا توجد كلمات لوصفه ، والذى انسحت به هذه الحفلات ، موضعا لانتقاد الجميع داخل إيران وخارجها لا سيما رجال الدين الإيرانيون ومع ذلك فلا مفر من تناول ذلك الموضوع مرة أخرى من زاوية مدلوله النفسى ومضمونه السياسى .

دافع الشاه بحرارة عن احتفالات قورش وقال إنها دليل ملموس على حيوية الأمة الإيرانية بوصفها وارثة لمجد الأكاسرة العظام الذين أعطوا البشرية أول إمبراطورية فى التاريخ وإنها أفضل مناسبة للبعث الآرى المنشود . وفى كثير من المبالغة يؤكد الشاه أن ثورته البيضاء تستمد جذورها من الثورة « البيضاء » التى عن طريقها أسس قورش إمبراطوريته فى غضون جيل واحد وبأعلى درجة من التماسك الاجتماعى والتفانى والوحدة الاقتصادية التى أسفرت عن قيام الأمة الفارسية .

وفى حديثه إلى الصحفى الهندى الأشهر كارنجيا أكد الشاه مرة أخرى أن احتفالات قورش كانت بمثابة اكتشاف للروح الآرية (الفارسية) من جديد . هذه الروح التى لم يفقدها الشعب الإيرانى مطلقا رغم النكسات وموجات الانحسار التى تعرض لها .

هكذا يشعر المرء بالرعب حينما يرى انطلاق السلم لشعب إيران السلم يجاهد ليجعل من نفسه امتدادا لقورش وداريوس حاضر إيران بماضيها السابق على الإسلام متغافلا عن عمد ارتباط شعبه الوثيق بالعقيدة الإسلامية . والواقع أن الإشارات المقصودة إلى ماضى إيران قبل الإسلام كانت قد كثرت فى السنوات الأخيرة من حكم الشاه . وكان إلغاء التقويم الهجرى - واستبدال تقويم به يبدأ بتأسيس إمبراطورية قورش - هو قطعة اللاعودة فى علاقة الشاه بالأغلبية الشيعية فى بلاده .

حقا كان الشاه على ما يبدو يريد إقامة دولة عنصرية (أى دولة قومية علمانية) فى إيران وهو

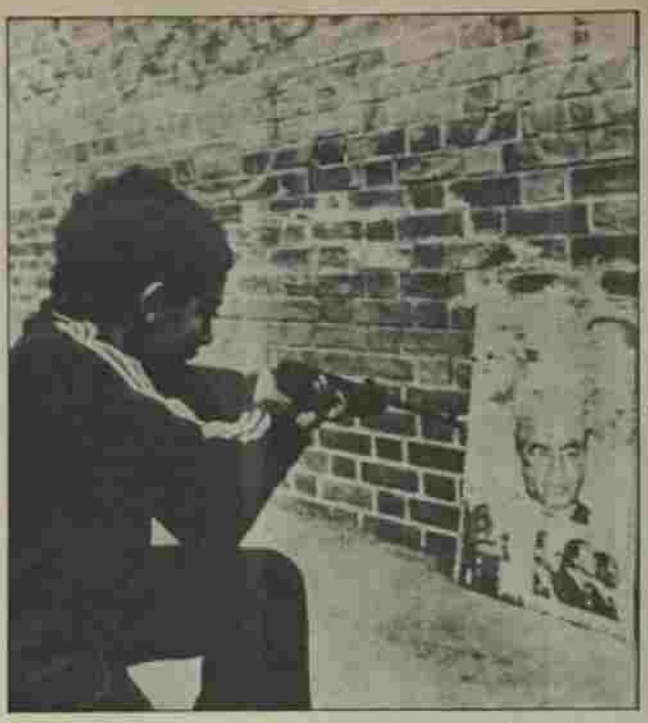

أعادت الثورة توازن القوة
وأعادت سلطة الشاه تحقيق شيء فشيئا

الرئيس الأمريكي الأسبق جون كينيدي

الرئيس الأمريكي الراحل فرانكلين روزفلت

كان الشاه يكرههما في قرارة نفسه لأنهما عاملاه باستخفاف

تكن احتفالات فورش سوى مناسبة لاستعراض الشرعية السياسية على حكمه . فضلا عن ان تواضع نسبه دفعه في كثير من الأحيان إلى المغالاة في تمجيد نفسه . وتمجيد أسرته إلى حد اضفاء نسب أعلى مكانة من الناحية الاجتماعية . وكانت احتفالات فورش تعبيرا من نوع مختلف . عن الشعور بعقدة النقص هذه . ولكن كان بوسع الشاه أن يضفي على نفسه الشرعية بالاستمرار في سياسته الإصلاحية . التي جلبت له قدرا كبيرا من التأييد الشعبي وتأييد المثقفين حتى ممن كان ينتمي منهم إلى اليسار .

ثم إن الشاه في غمرة شعوره بالنشوة قد تجاهل أو ازدرى شعبه مرة أخرى كعادته حين يزج بنفسه ملكا للملوك وامبراطورا للايرانيين بدلا من أن يتسلم التاج من ممثلين منتخبين للشعب .. لقد كانت تلك اللحظة التي اتجاها امبراطور الأريين الجديد لحظة اللقاء مع التاريخ . هي ذروة الانفصال عن الجماهير لأن ذلك افتقد في هذه اللحظة الوسيلة الملائمة للقاء مع شعبه . وقد ترتب على هذه الحقيقة الكثير . ولكن أهم ما ترتب عليها أن الشاه ظن أنه اكتسب الشرعية بهذه المظاهر التي كاد من شأنها أن تخلب الألباب في زمن مضى بدلا من اكتسابها عن طريق إضفاء الصبغة الديمقراطية على مؤسسات الحكم لكي يشترك الشعب في صنع القرار وتشكيل مستقبله .

الدكتور محمد مصدق
كان الشاه يكرهه لأن الشعب يحبه

من ملك لا يملك إلى حاكم يأمره

رأيت الشاه لأول مرة عام ١٩٤٨ بينما كان يقوم بزيارة رسمية لفرنسا . وكنت وقتها أعمل في وظيفة دبلوماسية صغيرة في سفارتنا في باريس . وبدا لي الشاه في ذلك الوقت غير واثق من نفسه تعلو وجه أحيانا حمرة الخجل . وكانت تلك الملاحظة في محلها حيث كان الشاه لا يزال خارجا من تجربة الحرب العالمية الثانية التي أودت بوالده وجاءت به على العرش بأمر الحلفاء بلا حول ولا قوة .

وقد احتاج الشاه الشاب في ذلك الوقت إلى جهود كبيرة لتحسين صورته أمام شعبه وواتته الفرصة في مناسبتين . الأولى جلاء القوات الروسية عن اذربيجان تحت وطأة الضغوط الأمريكية والدولية ومن ثم انهيار جمهورية جعفر بشاوري الشيوعية ودخول الشاه على رأس جيشه دخول الفاتحين ذلك الإقليم ١٩٤٧ . والثانية هي محاولة اغتياله الفاشلة عام ١٩٤٩ التي ساهمت في ترويج أسطورة ، شجاعة الشاه التي لا تميل لها ، وتكفل السماء بحمايته دائما .

وعلى أية حال ما كادت إيران تتنفس الصعداء بعد انتهاء الحرب وجلاء الجيوش المتحالفة عن أراضيها حتى واجهتها قضية البترول . ذلك أن امتياز شركة البترول البريطانية التي كانت تستغل آبار البترول الإيراني كان سينتهي في عام ١٩٥٠ . وفيما كانت المفاوضات تجري في تعثر بالغ بين الحكومة الإيرانية والشركة ارتفع صوت زعيم الجبهة الوطنية المعارض في البرلمان (الدكتور محمد مصدق) يطالب بتأميم البترول ووقف المفاوضات مع البريطانيين .

وفي مواجهة تلك العاصفة عين الشاه رجله القوي في الجيش الجنرال وازعارا رئيسا للوزراء ولكن صرع برصاص المتطرفين بعد قليل فحل محله رجل القصر حسن علا الذي لم يفلح في وقف الثورة الكلامية التي مثلها المعارضة بتأييد من جانب الشعب مما اضطر الشاه إلى تعيين الدكتور مصدق رئيسا للوزراء رغم مقته الشديد له . وزاد من كراهية الشاه لمصدق تزايد شعبية الأخير .

وبطبيعة الحال يعرف الجميع تفاصيل الأزمة بين الشاه ومصدق التي كان مسها الحقيقي هو رغبة كل منهما في الانفراد بالأمور مع عدم استعداد أي منهما للخضوع للآخر . وكما هو معروف انتهى حكم مصدق بانقلاب عسكري دبره الأمريكيون . ووقع ذلك الشاه مرة أخرى في قبضة الأمريكيين واستلزم التحرر من تلك القبضة من جانب الشاه خمسة عشر عاما على الأقل .

فتحت وطأة القبضة الأمريكية قبل الشاه على مضض استمرار الجنرال فضل الله زاهدي قائد الانقلاب رئيسا للوزراء رغم شخصيته القوية النزاعة إلى السيطرة . وبعد أن اضطر زاهدي للاستقالة لأسباب صحية عين الشاه أحد رجاله وهو الدكتور إقبال الذي كان يخطو له أن يضيف نفسه بالعبد المستعد للتضحية بحياته والذي كان الشعب يثور عليه قائلا إنه العبد ذو القرط في أذنه . ولكن الأمريكيين تدخلوا مرة أخرى ورفضوا عليه تعيين علي أميني السفير الإيراني في واشنطن رئيسا للوزراء .

وجاء أميني وبدأ سياسته الإصلاحية في المجالين الاجتماعي والاقتصادي . ولكن الشاه التواق إلى الاستبداد بالأمور والذي بدأ يشعر بالغيرة من نجاح أميني أخذ يتربص به حتى أقاله وأحل محله أسد الله علام أحد اتباعه . وكان إبعاد أميني وتعيين علام هما بداية انفراد الشاه بالحكم بعد نجاحه في تخليص القبضة الأمريكية عليه .

على أن انفراد الشاه بالحكم لم يكن شرا كله في بداية الأمر . إذ ما لبث الرجل أن بدأ سياسة اصلاحية واسعة النطاق شرحنا تفاصيلها فيما سبق . وفي ذلك الوقت وقعت اضطرابات ١٩٦٣ التي تزعمها الخميني وتم إخمادها بقسوة بالغة فأسفرت عن نفي الخميني إلى الخارج . وعن حركة تطهير واسعة داخل الجيش والأجهزة الحكومية . واتخذ من الإجراءات كل ما يضمن له كبت الرأي الآخر وتكميم الأفواه خاصة أفواه المثقفين . ومن هذه اللحظة أصبح الشاه هو الحاكم غير المنازع لإيران ورغم استبداده المطلق فإن معظم قطاعات الشعب وبينهم المثقفون اليساريون الذين أرهقوا من المطاردة والاضطهاد لم تجد خصاصة في تأييد برنامجه الإصلاحي . لأنه على حد قولهم أصبح ملكا مصلحا مستنيرا رغم أنه مستبد .

والحق أن تلك كانت تجربة واعدة . ومن واقع خبرتي المباشرة به في تلك الفترة أنني وجدته في مقابلاته معي متفتح الذهن للمناقشة متحمسا للإصلاح . وكان دائما يردد أن عليا جميعا أن ننسى الماضي وأن نتكاتف من أجل انتشال إيران من هوة التخلف . ولقد قال لي ذات مرة إنه يرى أن يذهب في إصلاحاته الاجتماعية إلى أبعد

من اليسار . كذلك بدأ النظام في ذلك الوقت سياسة حذرة للحوار مع المعارضة بما فيها أطراف اليسار .

ومع ذلك فإن نقاط الضعف الكامنة في شخصية الشاه كانت تظهر الفينة بعد الفينة . وكان طبعها بعرقل المسيرة ويدمر كثيرا من الآثار الطيبة للسلوك السابق لشرعه . فقد كان الشاه مثلا يتسم بالحيرة التي تصل إلى حد الخلط . من نجاح الآخرين . وكان يظهر بشدة من أية شخصية تحد بنفسها . وكانت الحيرة هي السبب القوي وراء القضاء على أميني من رئاسة الحكومة وأذكر ذات مرة أثناء التريب لعقد مؤتمر الأمم المتحدة لحقوق الإنسان في طهران سنة ١٩٦٨ وكنت أشرف على هذه الترتيبات أني اقترحت عليه اسم نصير الله انتظام ليرأس المؤتمر . ولكنه بعد أن أعطى موافقته الفورية عاد وسحبها معللا ذلك بأن النظام لم يقبل بعد أثناء زيارته لبروكسل فيما كان الأخير يرأس دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٥٠ مفترضا أن رئاسته للجمعية العامة تعطيه من واجب القبول بعد الشاه على حد تعبيره !

ووصل تحكم عقدة الحيرة فيه إلى حد أنه كان يحار من شعبية زوجته الإمبراطورة فرح . وذات مرة عقب إلقاء الإمبراطورة خطاب أحرز إعجابا كبيرا لدى الشعب حول حرية التعبير استدعى الشاه أمير عباس هويدا رئيس وزرائه وطلب إليه أن يبلغ الشاهبانو أنها لا تستطيع أن تتحدث كذلك .

وكان الرجل كذلك يكره كل من يوجه إليه نقدا حتى لو كان من خارج إيران . لذلك كان لا يطيق سماع اسم عبد الناصر . وكان في قرارة نفسه يكره روزفلت وكينيدي . بل إن كراهيته الكامنة أبدا لمصدق جعلته مثلا يحتفظ باسم وزارة الحربية بدلا من وزارة الدفاع لأنني « إلا الآن مصدق هو أول من استحدث اسم وزارة الدفاع .

وكل من يعرف الشاه عن قرب يؤكد أن شخصيته حافلة بالتناقضات . ويشترك في هذا الرأي فيليب راسك وزير الخارجية الأمريكي الأسبق . وكذلك هنري كيسنجر ووليام سايمون وزيرا الخارجية والخزانة الأمريكية السابقان وسيشيا هولمز زوجة السفير الأمريكي السابق في طهران ريتشارد هولمز .

ومن أبرز صفات الشاه التي أدخلت آثارا غير حميدة غروره القاتل . وهذا الغرور هو الذي جعله إلى حد أنه كان يغضب كلما ينبه إلى الحقيقة غير الموافقة لهواه . من ذلك أن عمي الذي كان صديقا مقربا له في وقت ما وافقه ذات مرة في زيارة تفقدية لأحد المستشفيات . والذي خرجها سمي عمي عطاء رأسه وهناء لاستعادته فوجد أن النظام الدقيق والمرهق الذي كان يوحي بالرعاية الكاملة كل ذلك كان مهملا وكان رد الشاه حينما أخبره عمي بالحقيقة . اف . لا تصايقني . وانس كل شيء .

الرئيس الراحل جمال عبد الناصر لم يكن الشاه يطيق سماع اسمه .

ورغم أن الشاه ورث عن أبيه كثيرا من الصفات مثل القسوة المتناهية والدفع فإنه لم يرث عن أبيه كراهيته للمظاهر . فما هو مأثور عن الشاه الأكبر أنه وضع حاكما من حكام الأقاليم في السجن لأن هذا الحاكم نقل أشجارا بالغة الحجم إلى الطريق الذي سيمر منه الشاه ليبيت له أن امتثل لأوامره بتشجير كافة الطرقات . وكان ربما شاه قد كشف هذه الخديعة حينما تعمد النزول ليسند ظهره إلى إحدى هذه الأشجار "

ومما ورثه الشاهنشاه الخلوع عن والده ضيقه بالمعارضة وقسوته في اجتثاثها رحبه الخارق للنظام والعمل الشاق والإشراف على الجيش ولكن قسوته وترفعه عن الآخرين أحيانا على العرش رمية مقيتة وكآبة منفرة . ولم لا وقد فاق عدد قتلاه عدد قتلى أبيه بكثير ؟ !

التحول الكبير

غير أن أخطر نقاط الضعف في شخصية الشاه كانت علاقته بأسرته وبأصدقائه . وقد مر بنا الكثير من صور فساد وإفساد الأمراء والأميرات ورجال البلاط التي وصلت إلى حد انتهاك المحارم الإسلامية مثل أندية القمار وتجارة المخدرات . وكانت تلك العلاقات لا تلائم مع الصورة التي حاول الشاه أن يرسمها لنفسه كأب لجميع الإيرانيين . حقا كان الشاه مغرما بفكرة « السلطة الأبوية » . ولكنه لم يكن أبا عادلا بين جميع أبنائه فضلا عن أن الفكرة ذاتها تعد من نقاط ضعفه لأن الشعوب لا تحب أن تعامل عبيدا بالباب والعقاب مثل الأطفال .

وقد خلقت هذه العقد النفسية ، وأوهام العظمة المسيطرة على الشاه ، وإيمانه بالعصمة الإلهية له من الأخطار إلى جانب الفكارة السياسية المتفاعل فيما بينها وبين العوامل السياسية الطارئة لتحدث التغير الكبير الذي جعل الرجل يضل طريقه في النهاية .

أما تلك العوامل السياسية الطارئة فقد ذكرناها آنفا . وأما معالم ذلك التغير فقد تجلت في صراعه المتفجرة في اتخاذ القرار وانفصاله الواضح عن الواقع . وأخيرا في فقدانه للإحساس بالعوامل الإنسانية في السياسة والحكم .

وقد يفسر البعض هذا التحول بأنه وليد إصابة الشاه بعصاب الشرايين . أو بأنه وليد السلطة . ولكن تأخره كانت مجهدة بالإجهاد . ومن يقرأ أحاديث الرجل إلى الصحف والإذاعات بعد ١٩٧٤ يقف شعر رأسه رعبا . إذ كيف يعترف ملك مسئول علنا بأنه استبدل بالتعذيب البدني التعذيب النفسي في معاملة الخصوم السياسيين . وماذا عن الملاحظات القاسية المهينة عن رجال الدين وعن النساء الإيرانيات ؟ وكيف يسقط الرأي العام تماما من حسابه حين يصف جميع معارضيه ابتداء من مصدق إلى الخميني بأنهم عملاء وخونة ؟ وكيف يمكن تفسير حرصه على تشويه وتحقير كل من عداه

هل التفسير يكمن في مرض انفصام الشخصية ؟ أو في أوهام العظمة ؟ على أية حال لقد أدى به هذا التحول إلى الانفصال تماما عن الواقع . ودعم هذا الانفصال كراهيته للحديث عن السلبيات مما حدا بمعاونيه إلى حجب الحقائق غير الموافقة لهواه عنه .

واستطرادا لهذه الأوهام بات يسيطر عليه وهم أن إيران سوف تصبح في خلال عشر سنوات لا أكثر خامسة قوة صناعية وثالثة قوة عسكرية في العالم . وكان ذلك في ذاته شديد الخطورة على البلاد التي عجز اقتصادها عن الحفاظ على توازنه بسبب طموحات الشاه الخيرة .

وفي السنوات الأخيرة استعاض الشاه الكلمات بالأفعال . فالفساد قد انتهى لأنه يقول إن الفساد انتهى وإيران ستصبح قوة عظمى لأنه لا يريد لها مكانا بين دول العالم الثالث ولا شيء اسمه حقوق الإنسان في إيران فالمخربين والإرهابيين والمتعرضين والخونة الذين هم كل خصومه السياسيين .

هكذا فاجأته الثورة وبينه وبين الواقع ستار حديدي حال بينه وبين لقاء المعارضة المعتدلة في منتصف الطريق . وظل الرجل متشبثا بأوهامه حتى أصبح في الشهور الثمانية الأخيرة مشلولا عن الإتيان بأي عمل . وكانت الشاهبانو هي التي تتولى مفاوضات تشكيل حكومة شاهور بختيار . آخر حكومات الشاه قبل رحيله عن إيران في إجازة مزعومة .

لقد كانت الأيام الأخيرة في حياة الشاه في إيران دليلا حيا على أن الشاه أفقد النظام جذوره في التربة الإيرانية . ففي تلك الأيام كان حدا المعادلة السياسية هما : سلطة الشاه تتحلل شيئا فشيئا ، وقوة الثورة تزداد شيئا فشيئا لتحل محلها ، حتى حدث السقوط . إذا السقوط وكيف حدث ؟ هو موضوع الحلقة التالية .

□